

تقديم مركز نهوض للدراسات والبحوث

يقدم هذا الكتاب نموذجًا متفردًا لمؤرخي الأفكار. حيث يذهب كاتبه جوناثان إسرائيل خلاف العرف الشائع في الدراسات التاريخية، مؤكدًا أن الفكرة مؤثرة في تحولات الاجتماع. فإذا كانت المناهج التاريخية التي تكوّنت في زمن الوضعية العلمية في القرن التاسع عشر قد جعلت الفكر تابعًا للشروط الاقتصادية المادية، أو مجرد انعكاس للبنى الاجتماعية والسياسية، وانصرفت إلى التعليل الاقتصادي والسياسي والاجتماعي بل وحتى البيئي/ الجغرافي، نجد المؤلف يقلب هذا الترتيب المنهجي، مؤكدًا أن الفكرة لها دور فاعل في توجيه التاريخ وصناعته.

وللاستدلال على ذلك، يشير إلى أهم حدث ميّز العصر الحديث، أي الانتقال من النظام الإقطاعي إلى النظام الرأسمالي، وما شهدته هذا الانتقال من ثورات (الأمريكية، والفرنسية، والإنجليزية) أسّست للديمقراطية الحديثة، حيث يرى أن الفكر التنويري كان قائد هذه التحولات والمؤثر الفعلي في توجيهها وإرساء أنظمتها.

يقول في تفسيره لدور الفكر في صناعة الثورة الفرنسية:

"ورغم رفض أغلبية المؤرخين في العقود الأخيرة إقامة أي اعتبار لتأثير الأفكار في تشكيل جانبٍ مفصليٍّ من الثورة، فإنه بالنظر إلى المعارك الفكرية العظيمة في سبعينيات القرن الثامن عشر وثمانينياته، يتضح لنا فساد ذلك الرأي. وربما كان الموقف السائد حول كون الثورة الفرنسية لم تندلع بفعل الكتب والأفكار رائجًا ومؤثرًا إلى حدٍّ بعيدٍ، إلا أن ما يتوفر لدينا من أدلةٍ معاكسةٍ يبرهن على تهافتة" (ص ٢١١).

إنها إذن قراءة جديدة للتاريخ السياسي الحديث من منظار أثر الفكر، تجرب طريقة مختلفة في تعليل الأحداث التاريخية. غير أنه لا بدّ من الإشارة إلى أن جوناثان إسرائيل ليس مبتدئًا لهذا النوع من النظر إلى التاريخ، ففي دراسة الثورة الفرنسية كان المؤرخ كيث مايكل بيكر (Keith Michael Baker) قد نبّه إلى

الأصول الفكرية لهذه الثورة، واستهجن إغفال دورها من قِبَل المؤرخين. لكن ميزة المؤلف هي أنه كان أكثر تصريحاً وتطبيقاً لهذا المنظور المنهجي. لذا فإن كتابه هذا (ثورة العقل: التنوير الجذري والأصول الفكرية للديمقراطية الحديثة) -الذي يقدم مركز نهوض للدراسات والبحوث ترجمته العربية- يظل اليوم من أهم الكتب التي درست زمن الأنوار، وهو مختصر لثلاثة مجلدات كان قد أصدرها المؤلف سابقاً، فسّر فيها ظهور الحداثة في أوروبا وأمريكا تفسيراً فكرياً، مرجعاً إياها إلى الإسهامات الفلسفية لعصر الأنوار.

وإذا كان الشائع عند ذكر عصر الأنوار استحضار أسماء فلاسفته الكبار، أمثال مونتيسكيو وجون جاك روسو وفولتير، فإن جوناثان إسرائيل يحطُّ من قدر هؤلاء جميعاً، ويرى أن ثمة تنويراً آخر أكثر جذرية هو الذي أنجز التحوُّل التاريخي. حيث يصنّف مفكري الأنوار إلى صنفين اثنتين:

- صنف جذري: يمثل له بسايل، واسبينوزا، وديدرو، وهولباخ، وكوندورسيه، وتوماس بين، ويوهان هرذر، وغيرهم، وهو التيار الأكثر تحررية و"مناهضة للاهوت" حسب تعبير المؤلف.

- صنف معتدل: يدرج فيه مونتيسكيو، وفولتير، وروسو، وجون لوك، وإدموند بيرك، وغيرهم.

وخلال بحثه يرجع المؤلف الفضل في إحداث الثورة الفرنسية إلى التنويريين الجذريين لا المعتدلين، حيث يقول: "إذا تغاضينا عن دور التنوير الجذري، فإننا لن نعقل شيئاً من أحداث الثورة الفرنسية، ولن يمكننا البدء في تفسير أدنى مظاهرها" (ص ٢١١).

ويعرف جوناثان إسرائيل التنوير الجذري بأنه "يتجسّد... في مجموعة من المبادئ الأساسية التي يمكن تلخيصها في التالي: الديمقراطية، والمساواة العرقية والجنسية، والحرية الشخصية في أسلوب الحياة، والحرية الكاملة للفكر والتعبير والصحافة، واستئصال السلطة الدينية من العملية السياسية والتعليم، والفصل الكامل بين الكنيسة والدولة" (ص ١٧).

وعلى ضوء هذه المبادئ، قرأ المؤلف التاريخ الحديث، باحثاً عن المفكرين والفلاسفة الذين أسسوا لهذه المبادئ وأشاعوها، فحقّقوا -من ثمّ- التحوُّل الحدائبي.

ومن نافل القول التأكيد على أن نشرنا لهذا الكتاب لا يعني أننا نوافق على محتواه بجميع تفاصيله، فعنايتنا بهذا الكتاب تأتي من باب الفائدة المنهجية التي يقدّمها، والتي تتمثّل في تركيزه على قدرة الفكر على إحداث التغيير المجتمعي.

إن مركز نهوض للدراسات والبحوث حريصٌ على تزويد القارئ العربي بما يشري رؤيته للتحوّلات التاريخية الكبرى وشروطها، وقد أصدر في هذا السياق مجموعةً من الكتب، منها: "ثورات الشعوب الأوروبية (١٨٤٨م)" للدكتور إبراهيم ماجد الشاهين، و"العرب لم يستعمروا إسبانيا: ثورة الإسلام في الغرب" لإغناسيو أولاغوي.